قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

البعد الإيكولوجي لفلسفة إمانويل مونييه الشخصانية

The ecological dimension of Emmanuel Mounier's personalist philosophy

أد. رزقي مداح [1] *
[1] جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر.

Key words:
Ecologism
Environement
Nature
Personalism
Subjectivism
Technical Progress.

Abstract

Throught this article, we aim to show the existing convergences between Emmanuel Mounier's personalist philosophy and the environmentalist theses highlighted by the pioneers of ecological thought. And this in order to make intelligible the masterful contribution of this philosophy, caring for the person, to ecological awakening and, subsequently, to the emergence of environmentalist though, haunted by the obsession with protecting nature. Such an interest in personalim, and its gigantic posteriorities, is justified by the fact that is seemed important to us to clarify the ecological dimension of the personalist thought of Emmanuel Mounier after having noted that a significant number of authors, who touched on the question of the origins of ecological thought in their writings, tend to praise the great role for contemporary currents of thought, while assigning a secondary role to personalism. However, personalism is a real nursery for ecological ideas. Among the similarities between personalism and ecological thougth, we mention that they jointly criticize Cartesian dualism, Enlightenment thougth, and the values of modernity. They also intersect in the call to protect nature ant optimism for the future of existence despite the harsh conditions in which humanity and the planet live at this stage.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 12-11-2020
القبول: 12-12-2020
الكلمات المفتاحية:
الشخصانية
النزعة الايكولوجية
الطبيعة
-التقدم التقني
النزعة الذاتية.
البيئة.

ملخص

نهدف من خلال هذه الورقة إلى إظهار التماهي الموجود بين فلسفة إيمانوايل مونييه الشخصانية وأطروحات الفكر الايكولوجي، وهذا من أجل تبديد الصمت المضروب على إسهام الفلسفة الشخصانية في بلورة ونضج الوعي الايكولوجي في الفضاء الفلسفي الغربي. حيث يميل المهتمون بالتيارات الايكولوجية إلى الإشادة بالدور الكبير الذي لعبته التقاليد الفكرية المعاصرة (الفكر الأخلاقي المعاصر، ومدرسة فرانكفورت، والفينومينولجية) في نشأة الخطاب الايكولوجي، في حين تكتفي أغلبية هؤلاء الدارسين لأصول الفكر الايكولوجي بإشارة سريعة ومقتضبة إلى إسهام الفلسفة الشخصانية في بروز هذا الفكر، وهذا بالرغم من كون فلسفة إيمانويل مونييه، وبخاصة كتابه الشخصانية، بمثابة مشتلة حقيقية للأفكار الايكولوجية. ولقد بيننا في هذه الورقة مجموعة من نقاط الأساسية التي يتفق فيها الايكولوجيين مع أفكار الفلسفة الشخصانية، والتي لا تترك أي مجال للشك بخصوص البعد الايكولوجي الواضح لفكر ايمانويل مونييه الشخصاني. من بين أوجه التقارب بين الشخصانية والفكر الايكولوجي، نجد نقدهما المشترك للثنائية الديكارتية، ولفكر عصر التنوير، وكذا تشكيكهما في قيم الحداثة. كما يتقاطعان أيضا في الدعوة إلى حماية الطبيعة، والتفاؤل بمستقبل الوجود رغم الظروف العصيبة التي تعيشها الانسانية وكوكب الأرض في المرحلة الراهنة.

* Corresponding author at : Mouloud Mammeri's University of Tizi-Ouzou- ALGERIA
Email : rezkimeddah@yahoo.fr

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

تعتبر الشخصانية حركة فلسفية مفتوحة، وليست مذهبا وثوقيا منغلقا يثمن قواعد صنمية، ويأطر الوعي الإنساني من خلالها، ويوجهه نحو غايات ايديولوجية أو سياسية محددة. كما تعد أيضا تأملا في المشهد الحضاري المعاصر وما يختلجه من مشكلات ناتجة عن التطور التاريخي الذي شهده العالم الحديث.

تسعى الشخصانية، حسب إمانويل مونييه (1905-1950) Emmanuel Mounier، إلى أن تكون «جهدا كليا لفهم وتجاوز أزمة الإنسان في القرن العشرين برمتها» (**Mounier, 1946, p. 37**). ولهذا السبب ناقشت الفلسفة الشخصانية مختلف جوانب الأزمة التي عصفت بالإنسان في الأزمنة المعاصرة، ومحصت تمثلاتها في المجالات المختلفة، وأصبحت الآراء الشخصانية مرجعية فكرية أساسية للتيارات التي تهتم بتمظهرات هذه الأزمة. ولما كانت المشكلات الايكولوجية جزء من هذه الأزمة الشاملة، فمن البديهي أن يستفيد المشتغلون بتفاصيل هذه المشكلات من الرؤى والأفكار التي قدمتها الشخصانية.

يعد الفكر الايكولوجي من بين هذه التيارات الفكرية الجديدة التي اهتمت بالمشكلات البيئية التي تعد جانبا من الأزمة الشاملة التي يعيشها الإنسان المعاصر، ولقد استفاد رواد هذا الفكر من التحليلات التي قدمتها الفلسفة الشخصانية بخصوص هذه الأزمة. ولكن ما نلاحظه هو تجاهل دور الأفكار الشخصانية في بروز ونضج الفكر الايكولوجي باستثناء ورود بعض الايماءات النادرة والسطحية إلى التطابق الموجود بين الكثير من الأفكار الشخصانية ومقاصد الفكر الايكيولوجي.

نوهت إيفا ساس Eva Sas في دراستها فلسفة الايكولوجية السياسية بالفضل الكبير للتيارات الفكرية المعاصرة على النزعة الإيكولوجية، وأكدت تفاعل هذه الأخيرة مع المضمون الفلسفي لتلك التيارات واستفادتها منها، حيث أشارت إلى الكثير من المرجعيات الفكرية التي مارست تأثيرا عميقا على الفكر الايكولوجي وذكرت في هذا السياق الدور المحوري الذي لعبه الفكر الأخلاقي المعاصر، ومدرسة فرانكفورت النقدية، لكنها لم تنصف التيار الشخصاني، الذي يعد إيمانويل مونييه أهم ممثليه على الإطلاق، بل اكتفت بإطلالة مقتضبة وسريعة عليه، ولم تعتبره مهما في التحسيس بالمشكلات الايكولوجية مثل ما هي الحال بالنسبة إلى التقاليد الفكرية الأخرى. وهذا بالرغم من التطابق الكبير الموجود بين الأفكار الشخصانية وتلك التي تدافع عنها النزعة الايكولوجية.

إن ما ينطبق على هذه الدراسة الأولى، التي أشرنا إليها، ينطبق أيضا على دراسة المفكر فابريس فليبو Fabrice Flipo الموسومة بالطبيعة والسياسة. إذ نجده يستفيض في سرد تأثير الفينومينولوجيا، والانطولوجيا، والفكر الأخلاقي المعاصر، وكذا الدراسات السوسيولوجية على بروز الوعي الايكولوجي واكتمال نضجه، في حين لم يبين بالطريقة نفسها تأثير الأفكار الشخصانية على التيارات الايكولوجية، مثل الايكولوجية السياسية، والأخلاق البيئية، والايكولوجية النسوية، وتجاهل بذلك البعد الايكولوجي للفلسفة الشخصانية، وكذا الأسبقية التاريخية للفكر الشخصاني على بعض المرجعيات النظرية الأساسية للفكر الايكولوجي. ولهذا نتساءل: هل تجاهل المهتمون بالفكر الايكولوجي لدور فلسفة إمانويل مونيه في تبلور الأطروحات الإيكولوجية مرده إلى كون الشخصانية لا تملك أي بعد إيكولوجي؟ أم أن التدقيق في تفاصيل هذه الفلسفة يبين احتواءها على هذا البعد؟ وإذا كان هذا الطابع الايكولوجي جانبا حقيقيا في الفلسفة الشخصانية، فإن من الضروري علينا توضيح تجليتاته.

قد يبدو لنا، من الوهلة الأولى، أنه من الصعب ايجاد بعد ايكولوجي في فلسفة تركز على الشخص، وتجعل منه محور اهتمامها الأول، بخاصة أن الفكر الايكولوجي يعلن اهتمامه اللامشروط بالفضاء الطبيعي الذي يعد الإنسان مجرد جزء منه. ولكن عندما ندرك مدى تركيز الفلسفة الشخصانية على علاقة الشخص بمحيطه البيئي، وطريقة تأثيره وتأثره بهذا المحيط الذي يسهم بشكل فعال في صناعة قيمه وثقافته، فإننا سوف ندرك التقارب الموجود بين الفلسفة الشخصانية والفكر الايكولوجي. ولهذا نسعى إلى إبراز البعد الايكولوجي لهذه الفلسفة بغية تثمين دورها في بروز الفكر المسكون بهاجس حماية الطبيعة الخارجية.

من أجل تبيين البعد الايكولوجي لفلسفة **ايمانويل مونيه** الشخصانية، سوف نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، بعض نقاط التماس الأساسية بين هذه الفلسفة الشخصانية والفكر الايكولوجي التي تسمح لنا بتوضيح هذا الطابع البيئي للشخصانية، والتي سنلخصها في النقاط الستة التالية:

1. نقد فكرة السيطرة على الطبيعة

عندما نتتبع الجذور التاريخية للفكر المسكون بهاجس حماية الطبيعة، فإننا نجد أن أصوله الحقيقة هي وليدة الأزمنة المعاصرة، حيث لا يمكننا أن نجد في التراث الفكري والأخلاقي القديم أو الحديث نظريات كاملة تهتم بحماية الطبيعة، وكل ما نجده بهذا الخصوص هو مجموعة من الآراء المتشظية التي لا ترقى إلى مرتبة النظرية الفكرية الرصينة والواضحة المعالم. ولو أردنا أن نعرف حقيقة هذا التجاهل الأخلاقي للوسط الطبيعي، في الأزمنة الماضية، لوجدنا في عدم وجود أي خطر على الطبيعة والكائنات الحية مبررا واضحا لانصراف العقل الفلسفي والأخلاقي عن الاهتمام بحماية الطبيعة، حيث كان التدخل الإنساني في الوسط الطبيعي سطحيا وبسيطا، ولم يتمكن الإنسان العاقل من التأثير بعمق في النظام البيئي، وهذا راجع إلى بساطة المعدات التقنية التي كان يستعملها، إذ لا يؤدي توظيفها إلى استنزاف الثروات الطبيعية أو اتلاف المخزون الحيوي للطبيعة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لكن بعد الثورة الصناعية، لم يبق الفعل الإنساني على طبيعته الأولى، بل أصبح أعمق تأثيرا في الطبيعة، وفي أصناف الحياة التي تكتنزها، ومع مرور الأزمنة تفاقم حجم التأثير الإنساني في الوسط البيئي، بخاصة مع التقدم التقني الكبير الذي شهدته نهاية الأزمنة الحديثة، حيث أصبحت علامات التأثير البشري في الوسط البيئي أكثر وضوحا بعدما تسارعت وتيرة استغلال الطبيعة من أجل التجاوب مع المتطلبات الاقتصادية للسوق، فتزويد المصانع بالمواد الأولية، واستصلاح الأراضي من أجل إشباع الرغبات الاستهلاكية، أدى إلى استنزاف الثروات الغابية، والقضاء على الكثير من الكائنات الحية، وهو ما أدى إلى أختلال توازن الأنظمة البيئية.

يعد السلوك الإنساني بمثابة السبب الرئيسي لهذا التحول الذي طرأ على الوضع البيئي، حيث يتصرف الإنسان بكل حرية في سعيه المستمر لإشباع رغباته دون أدنى اهتمام منه بمصير الطبيعة؛ لأنه يعتقد بتفوقه على الوجودي والأخلاقي على كل عناصر الطبيعة، ومن هذا المنطلق يرى بأحقيته في السيطرة عليها، والحقيقة أن هذا الاعتقاد والسلوك هو السبب الأول لتدهور الوضع البيئي.

لقد رفضت فلسفة امانويل مونييه الشخصانية كل التصورات التي تثمن الإنسان وترفعه إلى مقام يكون فيه متعاليا على الطبيعة ومنفصلا عنها، وتصنف هذه التصورات في خانة الرؤى الخاطئة التي تتجاهل حقيقة الإنسان لكونها لا تعكس واقعه الشخصي؛ لأن الإنسان، في تقدير الشخصانية، ليس كائنا متعاليا عن الطبيعة وإنما هو حسب إمانويل مونييه:« كائن طبيعي، ويشكل بجسده جزء من الطبيعة» (**مونيه**، 1981، **صفحة** 23)، وهذا المفهوم للإنسان يتطابق مع المفهوم الذي تدافع عنه النزعة الإيكولوجية التي ترفض ذلك التصور التقليدي للإنسان الذي صاغته النزعة الإنسية في عصر النهضة ورسخه فكر عصر التنوير . إذ نجد صدى هذه الفكرة عند المفكرين الايكولوجيين، وبخاصة عند رواد الايكولوجية العميقة الذين يزدرون فكرة تعالي الإنسان عن الطبيعة، يعتبرونه جزء منها، وكائنا متساويا مع الكائنات الأخرى، وهذا ما يسميه بالضبط رائد الايكولوجية العميقة The Deep ecology أرنه نيس Arne Naess(1912-2009) «بالمساواة في الفضاء الحيوي» (Naess، 2013، **صفحة** 59)، فالإنسان ليس كائنا متفوقا على الكائنات التي يتقاسم معها الانتماء إلى الوسط الطبيعي نفسه، بل هو ند لها، يتناغم معها في الوسط الطبيعي الرحب، ويكون برفقتها اطارا وجوديا مكتملا ومتكاملا يسمح لجميع الكائنات الطبيعية بالازدهار، ولا ينبغي له السيطرة عليها مهما كان مبرره في ذلك؛ لأن استمراره في الوجود مرهون بمدى بقاء الأجناس الحيوية الأخرى التي تملك أهمية تضاهي تلك التي يتمتع بها الإنسان. وكلما كانت حياة الكائنات والعناصر الطبيعية الأخرى في خطر أضحت حياة الإنسان ووجوده مهددين بخطر الزوال والإندثار.

هذا، ويعتقد مونييه بأن التحرر الفعلي للإنسان لا يكون بالسيطرة على الطبيعة، بل بالانتماء إليها، وما يجعلنا نشعر حقا بهذا الانتماء هو تفاعلنا مع عناصر الطبيعة، عن طريق احتكاكنا بالعالم وبهذا المعنى فإن السيطرة على الطبيعة ليست مفتاحا للتحرر، وإنما هي عائق موضوعي أمام اكتمال مفهوم التحرر؛ لأن السيطرة على العالم الطبيعي هي في الأصل سيطرة على الذات الساعية إلى التحرر باعتبارها جزء من الطبيعة، فالتحرر الحقيقي للإنسان مرهون بمستقبل "الأشياء" وتحررها من السيطرة الإنسانية اللامحدودة، وهذا الامتناع عن السيطرة هو ما يمنح الإنسان حريته الفعلية، ويعبر إمانويل مونيه عن جدلية الانتساب إلى الطبيعة ورغبة السيطرة عليها بقوله: « إن الانتساب إلى الطبيعة يصبح سيطرة عليها، وبذلك يصبح العالم جزء من جسد الإنسان ومصيره وعلى الإنسان أن يحد معنى فعله في الطبيعة. إن ذلك لا يكون بفرض العبودية على الأشياء، فالشخص لا يتحرر إلا بتحرر الأخرين، وتحرير الأشياء ضروري كتحرير البشرية» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 23). وهنا يتضح مدى رفض مونييه لفكرة السيطرة على الطبيعة، ودحضها لإمكانية توظيف مطلب الحرية لتبرير بسط الإنسان لنفوذه على العالم الخارجي الذي يعد جزء منه.

تدافع النزعة الايكولوجية عن الموقف نفسه الذي دافع عنه مونييه، والمتعلق بتحرير الطبيعة، حيث تربط هذه النزعة الانعتاق الكامل للجنس البشري من كل الأخطار البيئية التي تهدده بتحريره للطبيعة من السيطرة التي يعضدها باستمرار العقل التقني، وبهذا يكون تحرير الطبيعة استكمالا لسيرورة التحرر الشاملة التي مرت بمراحل عدة، وهذا ما عبر عنه أندري بوشامب André Beauchamp بقوله: «بعد تحرير الشعوب، والسود، والنساء، والعمال، دقت ساعة تحرير الطبيعة» (**Beauchamp, 1993, p. 38**)، فالغاية التي تصبو إليها النزعة الايكولوجية هي نفسها الغاية التي عبر عنها إمانويل مونييه في فلسفته الشخصانية والتي لا تجعل من الحرية حكرا على الإنسان، وهذا دليل أول على البعد الايكولوجي لهذه الفلسفة الشخصانية.

2. نقد الثنائية الديكارتية والنزعة الذاتية

من النادر أن نجد تيارا فلسفيا معاصرا لا تتضمن أطروحاته نقدا واضحا وصريحا لأسس الفلسفة الديكارتية، وبخاصة لفكرة الثنائية حيث نتحسس ذلك في الكثير من الفلسفات الرائدة التي وجهت الفكر توجيها حاسما في الأزمنة المعاصرة، مثل ما هو الحال بالنسبة إلى الفينومينولوجيا، والوجودية، والبنيوية، والإبستيمولوجية الباشلارية.

لكننا نريد هنا التركيز على النقد الذي وجهه التيار الشخصانيي إلى الثنائية الديكارتية لكونه يتقاطع ما النقد الذي وجهه إليها التيار الإيكولوجي، حيث اعتبرت الشخصانية هذه الثنائية سببا رئيسيا في تصدع الوعي الغربي وانشطاره إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقولات ثنائية متوازية (الذات والعالم، الروح والجسد، الفكر والامتداد، الإنسان والطبيعة). لقد فضلنا التركيز على هذا النقد اعتقاد منا بتلامس موقف شخصانية مونييه من الثنائية مع نظرة النزعة الإيكولوجيا إليها؛ لأن الشخصانية فلسفة تؤمن بأن «التعاون بين ما هو روحي وما هو مادي هو أمر طبيعي للإطاحة بكل المشكلات» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 110).

إن تجاوز هذا التقسيم الثنائي للوجود هو ما تصبو إليه أيضا النزعة الإيكولوجية التي ترى فيه مصدر لتعالي الإنسان على الطبيعة وهو جوهر الأزمة الإيكولوجية، ونجد أمثلة لهذا النقد في مؤلفات الايكولوجيين أمثال؛ هانس يوناس **(Jonas, 2008)** Hans Jonas، وأرنه نيس، وجون بيرد كاليكوت**,Callicott)** John Baird Callicott **2010)** وميشال سيرس Michel Serres **(Serres, 1991)**. إذ يعتقد هؤلاء بأن التقسيم الثنائي الذي ورثه العالم الحديث عن ديكارت هو أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت الإنسان ينظر إلى الوجود على أنه ثنائيات منفصلة، وليس وحدة كاملة منسجمة العناصر.

يترتب عن رفض الشخصانية لفكرة الثنائية نقدها أيضا للنزعة الذاتية التي سيطرت على الوعي الغربي لقرون طوال، ويعود سبب هذا النقد إلى أن هذه الذاتية لم تدفع فقط بالإنسان إلى الانفصال عن الطبيعة والسعي الحثيث إلى التحرر منها، وإنما جعلته أيضا ينكر ماضيه الطبيعي، حين كان يعيش مع "الأشياء" وبينها. ومن أجل الحيلولة دون الوقوع من جديد في هذا الإجحاف الذي كرسته النزعة الذاتية، تدعو الفلسفة الشخصانية إلى الانفتاح على الطبيعة وجعل العالم الذاتي يتفاعل ويتناغم مع معطيات الواقع الخارجي؛ لأن الإنسان في الأصل هو تكامل بين جانبه الذاتي وعالمه الموضوعي، وفي هذا الصدد يقول مونييه: « يجب تذكير الإنسان أنه لا يكون ولا يقوى بتوسط الشيء (المادي الموضوعي). يجب الخروج من أعماق الذات... فالإنسان هو "داخل" يحتاج إلى خارج، ولحظة الوجود تعني التفتح والتعبير عن الذات» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 15) وبهذا يجعل مونييه العالم الخارجي ضامنا لكينونة الذات واكتمالا لها، وإذا بقيت هذه الأخيرة حبيسة نفسها في بواطن العالم الداخلي سيصعب حينها الحديث عن أي دور لها، وعن جدوى وجودها أصلا.

نلتمس، فيما سبق، نقدا مستترا موجها، من طرف مونييه، إلى ديكارت؛ فإذا كان هذا الأخير يجعل من الذات ضامنا لوجود العالم الخارجي الذي يخضع بصورة كلية إلى سلطة الذات، فإن مونييه يرفض أن تحدد الذات قيمة العالم الخارجي، بل يعتبر هذا الأخير ضامنا انطولوجيا للذات ولكل ما تنتجه من قيم، ولا تملك أية أفضلية عليه، ولا يمكنها أن تكتمل إلى بالتضامن مع العالم الطبيعي الذي توجد وتتطور فيه. وهذا الموقف نفسه هو الذي اتخذته الايكولوجيون من ثنائية الذات والموضوع حيث يعتبرون طغيان الذاتية بمثابة وقوع في النسيان؛ نسيان أن الإنسان هو كائن طبيعي بجسده، وغرائزه، ولا يمكنه أن يزدهر إلا في ظل هذا العالم الخارجي الرحب.

هكذا يتقاطع الموقف الايكولوجي مع فلسفة امانويل مونييه في نقد النزعة الذاتية التي تخضع العالم الخارجي لسلطة الذات الإنسانية ويعود ذلك إلى كون رواد الفكر الايكولوجي يعتبرون خضوع الموضوع لسلطة الذات هو من بين الأسباب التي أدت إلى حدوث شرخ بين العالم الطبيعي والإنسان، ولهذا يعملون على تجاوز هذه الرؤية الاختزالية إلى العالم، حيث يؤكدون على وجود ذات واحدة هي ذات العالم التي ينصهر داخلها الإنسان والطبيعة ليكونا وحدة صوفية تصبح ذاتا كلية تتجاوز كل تباعد بين الذات الإنسانية و"ذات العالم"، وبهذا المعنى تكون الذات الإنسانية نافذة على العالم الطبيعي وليست وسيلة للهيمنة عليه، أو كما يقول أرنه نيس: «الأنا" الفردي وجهة نظر يمكننا من خلالها أن نتأمل "أنا العالم le Moi du monde » (Naess، 3102، **صفحة** 135)، ونلاحظ هنا دعوة إلى الاتحاد مع العالم الطبيعي وخلق وحدة متكاملة؛ لأن هناك قناعة عميقة عند الايكولوجين تلخصها عبارة أرنه نيس التالية: «كل المخلوقات الحية هي في الأساس مخلوق واحد» (Naess، 2013، **صفحة** 264)، والوصول إلى هذه الوحدة يقتضي وضع حد لمزاعم النزعة الذاتية التي أفرزت في إحدى أرقى تجلياتها النزعة الفردية، والتي تعد بدورها أحد الهواجس الكبيرة بالانسبة الى الايكولوجيين، بخاصة في المجال الاقتصادي.

يتصل نقد مونييه للذاتية الحديثة بنقده لفكرة الفردانية، وليس بالأمر الغريب أن نجد مفكرا حريصا على التضامن البشري مثل مونييه يرى في الفردانية خطرا على تماسك البنيان الاجتماعي، لكن ما يميز هذا النقد الذي وجهه إلى الفردانية هو رحابة أفقه، حيث يشمل حتى الأبعاد الوجودية لهذا التنامي الرهيب للفردانية. حيث تعتبر الشخصانية، حسب مونيه، فلسفة بديلة للفردانية، التي طفقت تيمز المجتمع المعاصر، ويعرفها مونييه بقوله: «الفردانية هي مجموعة من العادات والمشاعر والأفكار والمؤسسات التي تنظم الفرد في مواقفه الانعزالية والاندفاعية، وقد كانت هي البنيان السائد في المجتمع البرجوازي الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 28)، ولقد أنتجت الفردانية مع تطور الوقت «الرجل المجرد الذي لا روابط عنده ولا متحدات طبيعية تخصه يتحول إلى إله حاكم في وسط حرية بدون اتجاه وبدون حدود، إنه يتطلع إلى الآخرين بحذر وتحسب واحتجاج» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 28).

أدى هذا الوضع بالإنسان إلى أن يصبح كائنا آليا يثق في قدرته التي تقهر، وفي حريته اللامحدودة، مع تجاهله التام للانعكاسات السلبية لنشاطاته وسلوكياته على الواقع الوجودي له. ومن النتائج المباشرة المترتبة عن استفحال الفردانية في المجتمع المعاصر هي وصول الإنسانية إلى «نظام الحضارة التي تحتضر أمام أعيننا والتي هي من أفقر الحضارات التي عرفها التاريخ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهي نقيض الشخصانية وأقرب أعدائها» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 28). ترتبط الفردانية، حسب مونييه، في الأصل، بطبقة اجتماعية معينة، ونتج عنها تصور خاص للحرية، وهي في أفضل الأحوال تعبير صريح عن تفكك الروابط الاجتماعية، وعن ترهل التضامن الإنساني. أما الشخصانية فهي بحث حصيف عن الخلاص من هذه الفردانية، وهذا عن طريق إصلاح الوضع الحضاري المتأزم الذي ينتقده أيضا رواد الفكر الايكولوجي من خلال إعادة بعث جسور التعاون ليس فقط بين الذوات الانسانية وإنما أيضا بين الإنسان والطبيعة، حيث تصبح النظرة البشرية إلى العالم أكثر لطفا بالكائنات، وأعمق انسجاما مع عناصر الطبيعة.

يتجلى نقد الفردانية في النصوص الايكولوجية بشكل واضحونجد معالمه بادية في التساؤل عن الدور الكبير الذي لعبه النظام الرأسمالي القائم على الفردانية في تدهور الطبيعية واستنزاف ثرواتها سعيا إلى تحقيق الأرباح الاقتصادية على حساب سلامة الوسط البيئي، فنقد النظام الرأسمالي هو في جوهره نقد لنظام قائم على تثمين قيم الفرد وحريته. ويمكن أن نقدم نموذجا واضحا لهذا النقد في الكتابات الايكولوجيةمن خلال استعراض موقف المفكر دانيال تونيرو Daniel Tanuro الذي تضمنه مؤلفه الموسوم بالايكولوجيا الخضراء المستحيلة، وهو نموذج لهذا النقد الرصين الموجه إلى الفردانية والرأسمالية.

يعتقد تونيرو بأن الرأسمالية هي احتكار وامتلاك، بالمعنى الديكارتي، للموارد الطبيعية، وهي نظام يخدم طبقة معينة تقدم مصالحها على مصالح الإنسانية والطبيعة. ويتضمن النظام الرأسمالي عائقين أساسين يمنعانه من التجاوب الايجابي مع مطلب المحافظة على الطبيعة، وهما «التسابق من أجل المنفعة، ونمو الإنتاج المادي الذي يستلزم بالضرورة نمو الاستهلاك» (Tanuro, 2012, p. 91) وعندما نحاول ايجاد حلول للمشكلات البيئية دون المطالبة بالإقلاع النهائي عن المنطق الاحتكاري للرأسمالية سوف يؤدي بنا الأمر إلى فشل ذريع في تحقيق الغرض المنشود؛ لأن مبدأ المنافسة الحرة، الذي يمثل عماد الرأسمالية، لا يمكن أن يفرز نتائجا خضراء كونه يشجع النزعة الإنتاجية التي تتطلب بدورها تنبيه الحاسة الاستهلاكية لدى الفرد في المجتمع الرأسمالي ليصبح شرها في استنفاذ الانتاج (Tanuro, 2012, p. 15). إن محرك الرأسمالية هو الإنتاج المستمر للطاقة، وهذا الإنتاج والاستعمال اللاعقلاني للطاقة هو أحد الأسباب الرئيسية للمشكلات البيئية.

وفقا لما سبق، نجد أن الفردانية التي انتقدتها الشخصانية كانت بدورها محطة نقدية هامة في الفكر الايكولوجي، وهذا ما يعمق القناعة بتقاطع الموقف الشخصاني مع الموقف الايكولوجي في انتقاد النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي أفرزها التطور الحضاري، ويكسب الشخصانية هذا البعد الايكولوجي لها والذي نحن بصدد تقفي أثره في فكر امانويل مونيه.

3.مراجعة قيم التنوير ورفض الحرية المطلقة

غني عن البيان أن الفكر المعاصر فتح حوارا عميقا مع الإرث الفلسفي لعصر التنوير، ولم تصنع فلسفة إمانويل مونييه الشخصانية الاستثناء في هذا المجال، بل تساءلت بدورها عن حقيقة المشروع الفكري للقرن الثامن عشر، وعن مدى تطابق مبادئه السامية التي روج لها مع النتائج التي أفضى إليها.

يرى مونييه أن من بين ما بشرت به فلسفة التنوير هو التحرر من القهر بكل أنواعه، بما في ذلك القهر الديني، ولكن مبادئ الأنوار خلصت إلى إعادة إنتاج السيطرة نفسها التي تميزت بها المسيحية التقليدية، ولو كلل مشروع التنوير حقيقة بالنجاح، فلن نجد أثرا لأية أزمة مهما كان نوعها في الأزمنة المعاصرة. ولكن عندما وقعت فلسفة التنوير في اعادة انتاج قيم القهر والسيطرة التي ناهضتها، انتهى الوضع إلى ما هو عليه في جميع المجالات التي وعد فكر التنوير بتغيرها، بما في ذلك المجال الديني، ويعبر مونييه عن موقف االتنوير من القيم الدينية وما انتهت إليه من سيطرة بقوله: « لقد ظهرت فلسفة الأنوار واعتقدت بأن هذه القيم مصطنعة، فانتظرت زوالها القريب. وقد برزت شرعية هذا الوهم تحت تأثير الحماس العالمي الذي ظهر في ذلك العصر، ولكن هذه أمثولة لا شك بها في القرن العشرين. لقد اختفت هذه القيم بشكلها المسيحي لتعود إلى الظهور بشكل أخر: تأليه الجسم والمجتمع، والجنس البشري في جهده التصاعدي...والزعيم والحزب» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 124)، وهذا يعتبر إخفاقا حقيقيا لمشروع التنوير الذي كان يروم احداث قطيعة مع هذه الأوهام، أو بالاحرى انتكاسة موضوعية للمبادئ والوعود التي قدمها الفكر الغربي في عصر التنوير.

أراد مونيه بكل بساطة أن يظهر لنا، من خلال ما عرضناه سابقا، تهافت مشروع التنوير وعدم قدرته على توجيه الحياة الإنسانية وفقا للمبادئ التي بني عليها هذا المشروع في بدايته، حيث تحجر وانتهى الى بعث المثبطات والقهر السياسي والاجتماعي الذي ثار ضده. ولم توقف اخفاق مشروع التنوير في نظر مونيه على اعادة انتاج السيطرة التي ناوأها، وإنما له انتكاسات أخرى، وعرضنا فقط في هذا السياق التوضيحي إحدى أهم المطالب الفكرية لعصر التنوير التي لم يفلح في انجازها بنجاح.

يتقاسم مونيه مع رواد الفكر الايكولوجي الذين يستحضرون فكر على التنوير على أنه لحظة لتعاظم الذات وتعالي الإنسان على الطبيعة، وأكثر من ذلك يعتبرون أن مبادئ التنوير ،بخاصة العقل والحرية، والتقدم، هي المصادر الرئيسية للوعي الإنساني الذي انتهى إلى ظهور الأزمة الايكولوجية.

لقد أعاد مونييه النظر في طبيعة الحرية الإنسانية، ولم يخف ازدراءه للتصورات المختلفة التي استحضرت فيها، وإذا كان مونييه يعترف بأهمية هذه الحرية، وضرورتها في اكتساب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشخص لقيمته، فإنه يتعفف من الإقرار بامتلاك الإنسان لحرية دون أية شروط قبلية أو بعدية، فبالنسبة إليه «الحرية المطلقة هي خرافة» (**مونييه**، 1981) لقد حاول مونييه، جهد الطاقة، أن يبطل مفعول التصور النموذجي للحرية المطلقة، ورأى أن وجود الخصوصيات الثقافية يؤدي إلى تفكيك مزاعم الإنسان العالمي كما توهمت ذلك الفلسفة الوجودية؛ لأن النظر إلى الوقائع المعطاة سوف يطلعنا على وجود ثقافات متمايزة، لكل منها خصوصياتها وتاريخها، تختلف، حد التناقض، مع الثقافات الأخرى، وعليه لا يمكنها، مهما كان مبررنا في ذلك، التمسك بنموذج الإنسان العالمي وبمبدأ الحرية المطلقة.

يترتب عن هذه المقدمات اختلاف في تصور الحرية من ثقافة إلى أخرى، حيث يصبح مفهوم الحرية متناسبا مع وضع الشخص ومقوماته الخاصة، وليس امتثالا لفكرة قبلية تحدد معنى الحرية الإنسانية، وفي سياق نقده لهذا المفهوم الكلي للحرية يقول مونييه:« حرية الإنسان هي حرية شخص، حرية هذا الشخص بالذات، كما هو مركب وموجود في العالم وفي ذاته وأمام القيم» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 68). إن اختلاف القيم الذي يشير إليه مونييه هو ما تسميه النزعة الايكولوجية بالتعددية الثقافية، والتي تراها متماشية مع التعددية الطبيعية، لأن الثقافة، ولو بمعنى من المعاني، هي نتيجة لتجاوب الإنسان مع معطيات الوسط الطبيعي الذي ينمو ويتطور فيه، ويتضح هذا في اختلاف نوعية المأكل والملبس باختلاف المناخ الطبيعي الذي ينتج الحاجة ثقافة تقاوم النقائص التي تضعنا الطبيعة على محكها.

بالإضافة إلى رفضه للحرية المطلقة، يزدري مونييه حرية اللامبالاة، ويرفض أن تكون معيارا للتحرر الحقيقي للإنسان، وعليه لم يتردد في إبراز تهافت حرية اللامبالاة؛ لأن اللامبالاة حسبه «ليست نفيا للحتمية فحسب لكنها عدم تعين وتيسير كاملين» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 63)، فهذا النوع من الحرية يلامس الحدود المميتة للفوضى التي تبعد الإنسان عن الاختيار الفعلي، وتغربه عن واجب الالتزام والمسؤولية التي تقتضيها الحرية الحقيقة.

زيادة عن نقده لحرية اللامبالاة، بادر مونييه، في مقام أخر، إلى تمحيص التصور الذي يشتق الحرية من فتوحات علم الفيزياء المعاصرة التي أبانت عن وجود اللاحتمية، حيث كشفت عن عدم خضوع العالم الطبيعي كلية لمبدأ الحتمية، ووضعت بذلك حدا للتصور القديم الذي يعتبر الحرية بمثابة ثغرة في العالم الرحب للحتمية. ولكن واقع الأمر أن الحرية ليست انتفاء كلي أو جزئي للحتمية، وإنما هي بخلاف ذلك تماما، أو كما يعبر عن ذلك مونييه بقوله: «الحرية ليس بقية من عملية حسابية في الكون» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 63)، بمعنى أن هناك عدد قليل من الحتميات في العالم، أما ما تبقى من ذلك فهو عالم الحرية اللامشروط.

أكثر من هذا، لا يرى مونييه أي تعارض بين الحرية والحتمية الطبيعية، والاعتراف بهذا التعارض، في نظره، هو الخطأ الأكبر الذي وقع فيه التصور القديم للحرية؛ لأن في الحقيقة « لا يمكن اكتساب الحرية ضد الحتمية الطبيعية بل بالإضافة إليها وبواسطتها») (**مونييه**، 1981، **صفحة** 63). ونعتقد بأن تقديم مونييه للحرية والحتمية على أنهما متكاملتان نابع من تصوره للإنسان بوصفه كائنا مغموسا في الطبيعة، وليس متعاليا عنها، وحرية هذا الكائن لا تتحدد بمقدار الحتمية التي يتمنع منها، وإنما بقدرته على التجانس مع هذه الحتمية، وعدم حدسه لها على أنها عامل مثبط لحريته. كما أن نفي التعارض بين الحرية والحتمية في تقديرنا هو افصاح عن رفض الثنائية الديكارتية التي تقسم الوجود إلى ثنائيات متقابلة ومتصارعة وتملك إحداهما تفوقا طبيعيا على الأخرى، وما تمثله الحتمية بالنسبة إلى الحرية، وفقا لهذا المنطق الثنائي، هو بالضبط ما تمثله المادة بالنسبة إلى الروح، وفي حقيقة الأمر لا يوجد أي تنافر بين هذه المقولات وإنما الذات الإنسانية هي التي وضعت طواعية مفهوما يقيس كل مقولة بالمقارنة مع المقولة الأخرى التي تقابلها وعلى هذا الأساس بالتحديد تقاس أيضا الحرية بغياب محسوس للحتمية.

يرى مونييه أن الطبيعة، باعتبارها عالما للحتمية، هي في سعي مستمر إلى توفير شروط الحرية؛ لأن استقلال بعض الوظائف الخاصة بالإنسان عن العالم يكسبه استقلالية ووعي بجسده، وهذا يؤدي بدوره إلى استقلال روحي، وفي هذا السياق يقول مونييه: « تظهر الطبيعة عن تحضير بطئ ومستمر لشروط الحرية، فعدم خضوع العنصر الذري للحتمية ليس حرية وإنما يقدم بنيانا جديدا وغير جامد لعالم تمارس فيه الحرية، وكذلك فاكتساب العالم الحيواني للاستقلال الوظائف الفيسيولوجية التي تسمح بتعديل غذائه وحرارته وحركته وتفاعله مع المحيط، لا يشكل حرية بل تحضيرا للاستقلال الجسدي الذي هو وسيلة للاستقلال الروحي» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 64)، وهذا في نظره شرط كافي لعدم وجود تعارض بين الحرية والحتمية.

لا يوجد تعارض بين الحرية الإنسانية والحتميات التي تسكن وجوده بعمق، بل إنهما متناغمتان. تبدأ الحرية الفعلية، حسب مونييه، عندما نتقبل الحتمية التي تحكم غرائزنا التي تشهد بقوة على انتمائنا إلى عالم الطبيعة، وفي هذا الصدد يقول مونييه: « أن تكون حرا هو في البدء أن تقبل هذه الظروف لتجد فيها ارتكازا. ليس كل شيء ممكن، وليس ممكنا في كل لحظة. هذه الحدود تشكل قوة عندما لا تكون ضيقة جدا. الحرية كالجسم لا تتقدم إلا بالحواجز والاختبار والتضحية» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 68). إن الحرية التي يخبرنا عنها مونييه هي حرية تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الحقيقة للشخص المنتمي إلى عالم الحيوان والغريزة، والذي لا يمكنه أن يتجرد من هذه الهوية المادية بمجرد امتلاكه لإرادة حرة، وفي هذا الموقف نجد تطابقا كبيرا بين أراء مونييه وما تتوق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إليه النزعة الإيكولوجية التي ترى بأن الظرف الراهن الذي يعيشه الكون والإنسان يتطلب ايمانا بعدم تنافر عالم الحرية وعالم الحتمية، وهذا على خلاف فلسفة امانويل كانط Emmanuel Kantالتي رسمت حدودا نهائية بين عالم الحرية وعالم الطبيعة.

إن الحرية كما تصورها مونييه ليست جوهر الوجود الإنساني، وإنما هي جزء من الوجود، وهذا عكس الوجودية السارترية التي تلف الوجود على الحرية وتمركزه حولها. إن الحرية بهذا المعنى هي ادراك واعي للنقاط التي تلتقي فيها حرية الفرد مع الوجود العام الذي يتضمنها كقيمة ثانوية، هذه القيمة التي سيكتمل نضجها باستمرار ولا تتحصل لنا دفعة واحدة وكاملة، وبشكل ضروري، وفي هذا الصدد يقول مونييه :« ثمة مسافة من تدفق الوجود إلى الحرية، وهي التي تفصل بين الإنسان الباطني، على حدود الحياتي، والإنسان الذي ينضج باستمرار بأفعاله وفي الكثافة المتزايدة للوجود الفردي والاجتماعي» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 70)، فالتحرر سيرورة وجودية وليس اكتمال كلي نتحصل عليه دفعة واحدة.

هكذا، حاول مونييه، جهد الطاقة، أن يبين أن الحرية ليست واقعا صرفا، بل هي تجربة «تعاش ولا تشاهد ولا يوجد أي برهان على أن هناك حرية في العالم» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 62)، وعلى هذا النحو تكون الحرية "مقيدة" بالقدرة على الرفض، ومرتبطة بالتمنع من الإرادة التي تصنعها، بدلا من التسليم الضروري بوجود الحرية دون إمكانية إثباتها، وبعيدا عن الحرية التي نستنتجها من مقدمات ذاتية تفيض عن قناعات دليلها الوحيد على وجود الحرية هو رفض أو تقبل واقع معين. إن هذا الإثبات الوهمي للحرية لا يعبر عن غاية الحرية وجوهرها لأن الحرية في اعتقاد مونيه « ليست ملصقة بالكائن كأنها حكم. بل هي معروضة عليه كعطاء يستطيع قبوله أو رفضه. الإنسان الحر هو الذي يستطيع أن يعد وهو الذي يستطيع أن يخون لعدم كونه عبدا لحريته» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 66). إن الحرية الحقة بهذا المعنى هي القدرة على رفض الحرية ذاتها، وهذه الفكرة نجدها في صميم الفكر الايكولوجي الذي يرى في الحرية الإنسانية غير المحدودةوالتي لا تقبل النفي، خطرا على الوسط الطبيعي والعالم وحتى على الإنسان، وعليه من الضروري الحد من هذه الحرية من أجل الوصول إلى إصلاح الفعل الإنساني في الوسط الطبيعي، لكي يبقى العالم الطبيعي فضاء قابلا لاستمرار الحياة، وملجأ وجوديا دائما للإنسان. و إذا تركنا حرية الانسان تنمو دون قيود فإنها سوف تصبح خطرا عليه ذاته، وحماية الإنسان من خطر توظيفه السلبي لحريته، حسب جوليات غرانج، هي من غايات الإكولوجية السياسية، التي ترى ضرورة حماية الإنسان من نفسه (Grange, 2012, p. 17)، وفي هذه النقطة أيضا تلتقي الفلسفة الشخصانية مع التصور العام للحرية الذي تدافع عنه النزعة الايكولوجية.

4. مراجعة نظرية القيم والحقوق

غني عن البيان أن الفلسفة الايكولوجية هي فلسفة أكسيولوجية بامتياز، يتطلع روادها إلى توسيع أفق النظرية القيم ليشمل الكائنات غير الإنسانية، وهذا لكي لا يبقى فضاؤها العملي محصورا على الذات الإنسانية. وعندما نطلع على فلسفة مونييه الشخصانية فإننا نجد أنه اهتم بسؤال القيمة، حيث امتحنها على ضوء معطيات التقنية الحديثة. يعرف مونييه القيمة بأنها: « ينبوع حس لا ينضب من العزائم وفيض ومناداة مشعة وبذلك تنم القيمة عن نوع من الغرابة المنفتحة وعن قرابة الكائن الشخصي تسبق انزلاقها نحو التعميم. وهي إلا ذلك تميل بشكل لا يقهر في ذات محسوسة فردية أو جماعية. والأكثر دواما من هذه القيم لها وجود تاريخي. إنها تولد في وعي الإنسانية خلال نموها، وكأن كل عمر من أعمار البشرية له رسالة هي أن يكشف لغيره قطاعا جديدا من قطاعات القيم» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 78). يبدو من هذا القول أن مونييه لا يربط القيمة بالذات الإنسانية، وإنما بالذات بصفة عامة التي يمكن أن تكتسي لباسا فرديا أو جماعيا، وهذا نابع من قناعته بتطور القيم، وعدم خضوعها لمبدأ الثبات، وهو ما يفتح المجال أمام دخول عناصر جديدة في دائرة القيم، مثل الطبيعة التي سوف تصبح موضوعا للقيمة والاعتناء الأخلاقي. وهذه الفكرة نجدها عند رواد الفكر الإيكولوجي الذين يحاولون باستماتة جعل الإنسان ذات من بين الذوات الأخلاقية، وليس هو الذات الوحيدة، ومنه الموضوع الوحيد للقيمة.

إن كل قيمة، في تقدير مونييه، هي وليدة سياق حضاري معين وهي نتيجة للظروف التي توجه مسار التاريخ إلى البحث عن قيم جديدة، وهذه الحركية التي تميز نظرية القيم الأخلاقية والقانونية هي التي تجعل المبادئ الأخلاقية والبنود القانونية لا تستقر على حال، وإنما تتوق باستمرار إلى توزيع القوة الناتجة عن الحصانة القانونية توزيعا عقلانيا؛ لأن الاضطراب الناتج عن تصارع القوى هو ما يدفع بالأخلاق والقوانين إلى البحث عن موازنة بين هذه القوى، وهذا ما يعبر عنه مونييه بقوله: « لا يوجد نظام أو شرع لا يولد من صراع القوة ولا يظهر في علاقة قوة، ولا يعيش منتصبا إلا على القوة. التشريع هو دائما محاولة مؤقتة لعقلنة القوة وتوجيهها نحو ميدان المحبة» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 57). يوجد تطابق كبير بين موقف مونييه وفكرة رواد الفلسفة الايكولوجية المتعلقة بتوسيع نطاق النظرية الأخلاقية والحقوقية لتشمل الكائنات غير الإنسانية، حيث يركز الايكولوجيون على القوة التي أصبح يملكها الإنسان لتبرير الحماية القانونية لهذه الكائنات، وهي الفكرة نفسها التي نجدها، كما سبق ورأينا، عند مونييه. أما طابع الحركية الذي يميز النظرية الأكسيولوجية كما تصورتها الشخصانية، فهو الداعي الأساسي الذي يتستر وراءه فلاسفة الإيكولوجية من أجل تبرير الحديث عن حقوق الطبيعة؛ لأن التاريخ في نظرهم يتجه إلى تحرير الطبيعة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعدما اضطلع أنفا بتخليص العبيد والنساء، لأن الوضعية التي توجد عليها الطبيعة والكائنات غير الإنسانية في المرحلة الراهنة هي الوضعية نفسها التي عاشها العبيد والنساء في مرحلة سابقة من التاريخ العالمي.

5.نقد التقدم التقني وثقافة العصر

تطرق مونييه في الكثير من كتاباته إلى مسألة التقدم التقني، وأحصى العديد من النتائج التي يمكن أن يفضي إليها، ولم يخف وجله الكبير من التمظهرات المستقبلية للتقدم التكنولوجي، وهذا بالنظر إلى الوتيرة المتسارعة لهذا التقدم في مجال التقنيات الحربية. **(Mounier، 1959، صفحة 30)**، حيث تمثل التقنية الحديثة، في اعتقاده، خطرا فعليا على الحياة والوجود. وإذا كان الإنسان مسكونا بغريزة حفظ البقاء، فإن هذه الغريزة أمست عاجزة أما خطر الموت الجماعي الذي يتهدده بفعل التقدم التقني الذي يشهده العالم اليوم.

إن المجابهة الفعلية لهذا التهديد لن تبلغ البتة مبلغها ما لم نستحدث ثقافة تقديس الحياة؛ هذه الثقافة التي تصنعها القيم الداخلية التي تسهم التقنية في إغفالها وتستبدلها بقيم قاتلة. ومن الأسف، حسب مونييه، أن تصبح رفاهية الحياة أهم وأقوى من نشوة الحياة وغريزة حب البقاء. من المثير للانتباه أن التقنية الحديثة أصبحت تهدد الوجود في الوقت نفسه الذي تسعى إلى تحسين جودة الحياة والسبيل الوحيد للخلاص من هذا الوضع هو التفكير بعمق في المعنى الحقيقي للوجود، الذي تظهره القيم الداخلية الممجدة للحياة، ويلخص ذلك مونييه بقوله: « احترام الحياة قد لا يطغى على الميل الغريزي للحياة...ونحن لا نحي نهائيا إلا بعد أن نكون قد كوننا مجموعة داخلية من القيم أو التضحيات، نعلم أن التهديد بالموت ذاته لا يقوى عليها. والتقنية الحديثة لكونها تجرد هذه الحصون بالذل والتساهل، والمال والخضوع البورجوازي والتحيزات المخزية، فهي مميتة أكثر من الأسلحة النارية» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 81) . إن ما يحاول مونييه تقريبه من الفهم الإنساني، في تحليله لعلاقة التقنية بالمعنى الأنطولوجي للحياة، هو وجود نزوات مادية، تفرزها التقنية، تبعد الإنسان عن الفهم الرصين لمعنى الحياة كديمومة وتواصل يسمح بتنمية القيم الوجودية الرامية إلى صيانة هذه الحياة.

يتقاسم المفكرون الايكولوجيون مع مونييه هذا الخوف من التقدم التقني، وطغيان الآلة على الإنسان والطبيعة، ويعبر هؤلاء عن قلقهم الكبير من الحدث التقني بشكل واضح في نصوصهم. ويكمن أن نقدم مثالا عن ذلك في موقف رائد الايكولوجية العميقة أرنه نيس الذي يرى أن التقنية هيمنت على كل تفاصيل حياة الإنسان المعاصر وطفق هذا الأخير حبيس القيم التي أفرزها الاستعمال الواسع للتكنولوجيا، إلى درجة أنه تحول إلى آلة مسلوبة الإرادة، وأصبح يعيش حالة جد متقدمة من الاغتراب الاجتماعي، ولم يستثن انتشار التقنية أية ثقافة أو مجتمع، بل طال كل الثقافات والمجتمعات، وتحولت التقنية إلى سبب رئيسي للاغتراب عن الطبيعة، ويمكن أن نتحقق من ذلك عن طريق المقارنة بين الثقافات، حيث سيتبين لنا أن درجة تأثير الحدث التقني على هذه الثقافات لا تختلف بشكل كبير من ثقافة إلى أخرى، فكل المجتمعات تتقاطع في نقطة المعاناة من الاغتراب الناتج عن الاستعمال المفرط للتقنية، ولم يعد بمستطاعنا أن ننكر شدة القسوة المصاحبة لتنامي الحدث التقني. ويعبر أرنه نيس عن هذه الفكرة بقوله: «إن الاختبار المقارن لسيرورات الاغتراب في الثقافات المختلفة، سيكشف لنا أن الاغتراب ينتج دائما عن استعمال التقنية التي تعد دائما ناقلة للقسوة، والتي تخلق عدم اكتراث كبير بالمعاناة» (Naess، 2013، **صفحة** 276)، فالتقنية هي المسؤولة عن حالة الاغتراب المعمم الذي تعيشه مختلف الثقافات، وبالرغم من أن هذه التقنية هي المصدر الحقيقي لمعاناة الإنسان المعاصر إلا أن هذا الأخير بقي متشبثا بها، معتقدا بأن التقدم التقني هو سبيل الخلاص الوحيد الذي يمكنه أن يسمو بالإنسان إلى أعلى درجات التقدم.

يبدو لنا مما سبق أن هناك تقاربا كبيرا بين وجهة نظر مونييه وموقف النزعة الايكولوجية من التقنية وتأثيرها على الطبيعة وقيم العصر. وبالإضافة إلى هذا، يتقاطع موقف الايكولوجيون مع فلسفة مونييه الشخصانية في نقطة اعتبار ثقافة العصر الفارغة من القيم الأصيلة والبناءة هي المسؤولة عن أزمة القرن العشرين، حيث يربط مونييه هذا الحدث بضعف نظام القيم، وهشاشة الأنموذج الثقافي المعاصر، وهذا ما يتضح لنا من قوله :« يجب أن لا ننسى الدور الهام الذي مثله ضعف الثقافة وفقدان القيم والوجدان المعاصر، والناتج عن تأخر في النظريات الدينية والعقلية واجتياح حياتنا بالميكانيكا والمنفعة» (**مونييه**، 1981، **صفحة** 81). ولقد أسهب رواد الإيكولوجيا في إظهار وهن الأنموذج الثقافي المعاصر، الذي أمس مفرغا من قيم الحياة الأصيلة، وعلى هذا الأساس رأى هؤلاء الرواد ضرورة البحث عن ثقافة حياتية جديدة، تكون بدايتها بترويض إغراء الرفاهية المادية الذي تثمنه التقنية، قبل استجماع شروط انموذج ثقافي جديد يكون شاملا وبديلا جذريا لمعطيات الثقافة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية المعاصرة. في هذه الثقافة البديلة، سيكون المجال مفتوحا أمام مطلب الرعاية الأخلاقية للطبيعة عن طريق نظرية تربوية مخصصة لهذا الغرض.

6. التشاؤم في الحاضر والتفاؤل بالمستقبل

بالرغم من أن مونييه رسم صورة سوداوية عن العالم المعاصر، وهذا ما فعلته الفلسفة الايكولوجية بعده، ولكنه لم يرتكن إلى العدمية، ولم ينته إلى موقف مأساوي بخصوص مستقبل الإنسانية، بل كان إيمانه عميقا بقدرة الإنسان على تطويق هذه الأزمة. ولتحقيق ذلك يفضل مونييه الالتزام الحقيقي المتمثل في «المجابهة والإبداع والتقدم، وهذه هي الطريق الوحيدة التي كانت، منذ بدأ الحياة، تضع حدا للأزمات»

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(**مونييه**، 1981، **صفحة** 123)، فبمقدور الإنسان أن يجابه ويتغلب على مختلف تجليات الأزمة التي يعيشها الانسان المعاصر في ظل التحولات الكبرى التي يشهدها هذا العصر.

هذا الموقف المتفائل نجده أيضا عند المفكرين الايكولوجيين الذين يعتبرون أكثر جذرية في أرائهم الساخطة على الوضع الايكولوجي لكوكب الأرض في المرحلة الراهنة، فبالرغم من وجود المخاوف بشأن التطورات المستقبلية للمشكلات البيئية إلا أن المفكرين الايكولوجيون رفضوا الاستسلام لمنطق التشاؤم. حيث نجد أرنه نيس، المعروف بنقده للوضع الايكولوجي للكوكب، متفائلا بخصوص مستقبل الوجود، ولقد عبر عن أمله الكبير في أن يصل الإنسان مستقبلا إلى الانسجام مع الطبيعة ويأخذ مصلحة الكائنات الطبيعية الأخرى بعين الاعتبار، ويلخص أرنه نيس هذه الفكرة بقوله: «تأثرت افتراضاتي عن مستقبل حركة الايكولوجية العميقة حتما بالأمل والخوف. إن أملي هو أن تعرف الكائنات التي تتمتع بالعقل مثل الذي نتمتع به...كيف تدافع عن نمط حياة لا يكون ملائما لنوعها فقط، وإنما يكون ملائما لكل الفضاء الايكولوجي في تنوعه وتعقيده» (Naess، 2013، **صفحة** 331). ومنه يتضح لنا مدى تقاطع الفلسفة الشخصانية مع الموقف الايكولوجي في التفاؤل بالمستقبل.

نجد هذا التفاؤل أيضا عند المفكر الايكولوجي جيمس لوفلوك James Lovelock، صاحب فرضية غايا. فبالرغم من نقده للتقنية وللواقع الايكولوجي الراهن لكوكب الأرض، إلا أنه يملك أملا كبيرا في قدرة النوع البشري على الوصول إلى إنتاج تكنولوجية تساعده على تجاوز المشكلات التي تختلج الوضع البيئي في المستقبل، ويراهن على ذكاء الجنس البشري في تجاوز الصعوبات البيئية التي يعيشها النظام الإيكولوجي العام لكوكب الأرض، وعن هذا التفاؤل بخصوص التقنية يقول لوفلوك: «من الممكن أن نطور في نهاية المطاف تكنولوجية معقولة واقتصادية، ونعود من جديد إلى تناغم أكبر مع الأرض"غايا". أعتقد بأننا نملك حظوظا وافرة لبلوغ هذا الهدف عن طريق المحافظة على التكنولوجيا وتعديلها بدلا من أن نغامر في حملة رجعية للعودة إلى الطبيعة» (**Lovelock, 1993, pp. 142,143**)، فبالرغم من التشاؤم الذي يطبع نظرته إلى الحاضر، نجد رؤيته على المدى البعيد مشبعة بالتفاؤل بالمستقبل.

إن ما يجعل هذا التفاؤل راسخا في اعتقاد الايكولوجيين هو إيمانهم العميق بأن ما يعشه كوكب الأرض من خراب بيئي راهنا لا يحيل إلى وجود خلل في الطبيعة البشرية يجعلها فاسدة وميالة إلى تخريب أشكال الحياة على سطح الأرض، وإنما يعتقدون بأن ما تعيشه الطبيعة اليوم هو واقع ظرفي يمكن للكائن الإنساني أن يتجاوزها بالتوعية، وفي هذا الصدد يقول أرنه نيس مايلي: «التعذيب والعنف، واستغلال أشكال الحياة الأخرى ليست أمورا مسجلة إلى الأبد في جينات الجنس البشري، ولا يوجد لدينا أي سبب مقنع لنفكر بأن العلم سيصل يوما ما إلى نتائج محبطة بخصوص الطبيعة البشرية» (Naess، 2013، **صفحة** 271)، ولهذا ينبغي أن يبقى العالم متفائلا بشأن مستقبل أفضل، ولا ينظر إلى الوضع الايكولوجي الراهن لكوكب الأرض على أنه حالة دائمة لا يمكن تغييرها في العقود الزمنية المقبلة التي يمكن أن تكون أثر إشراقا وتوازنا على المستوى البيئي من الأزمنة الماضية والراهنة التي تعد من أسوء المراحل التي عاشها الوضع الايكولوجي لكوكب الأرض.

الخاتمة

يمكن أن نقول في نهاية هذه الورقة بأن فلسفة إمانويل مونييه الشخصانية تمثل مشتلة حقيقية من الأفكار الخضراء التي بلغت مرحلة النضج مع رواد الفكر الايكولوجي، حيث لا نكاد نرصد فكرة حللها بعمق هؤلاء الرواد إلا ووجدنا ما يعادلها في الفلسفة الشخصانية لمونييه. وهذا دليل على وجود تقارب كبير بين الشخصانية والفكر الايكولوجي، وهو الأمر الذي يدفهنا إلى الإقرار بامتلاك فلسفة مونييه لبعد ايكولوجي. ويمكننا أن نلخص هذا التقارب في النقاط التالية:

1- يشترك امانويل مونييه مع المفكرين الايكولوجيين في نقد المنظومة الفكرة الحديثة التي يدعو منظروها إلى السيطرة على الطبيعة، بل يحرص في مقابل ذلك على الدعوة إلى حمايتها باعتبارها اطارا انطولوجيا ضروريا لازدهار الشخصية الانسانية التي لا يمكنها الاستغناء عن هذا الفضاء الفريد الذي يضمن لها شروط الحياة الأصيلة والاستمرار في الوجود.

2-يتقاطع فكر مونييه الشخصاني أيضا مع أراء الايكولوجيين في نقد الثنائية الديكارتية التي تعتبر الوجود مجرد مجموعة من الثنائية المتقابلة(الفكر والامتداد، الروح والمادة، الإنسان والطبيعة)، ويدعو معهم إلى النظر إلى العالم على أنه وحدة متكاملة وليس مجموعة من الثنائيات المتقابة التي لا تحتمل الإتحاد والانسجام. كما يتقاسم معهم نقد النزعة الذاتية التي تكرس مبدأ تفوق الانسان على الطبيعة، ويرفض بذلك السيادة المطلقة للإنسان على الكائنات والعناصر الطبيعية.

3- يتفق الايكولوجيون مع إمانويل مونييه في مراجعة قيم عصر التنوير، وبخاصة فكرة الحرية التي أعاد مونيه صياغة نظريتها بما يتوافق وحماية الطبيعة؛ لأن الحرية كما تصروتها الفلسفات الحديثة هي في نظره تشجيع مباشر لثقافة السيطرة على الطبيعية، ولهذا السبب رفض الايكولوجيون أيضا فكرة الحرية المطلة التي تمهد المجال لسيطرة الانسان على الطبيعة والكائنات التي تتقاسم معه الوجود.

4- ينتقد مونيه التقدم التقني ويعتبره خطرا على الطبيعة والوجود، وهذا النقد نجده أيضا في الكثير من النصوص الايكولوجية التي تعتبر التكنولوجية عاملا من عوامل الخراب البيئي؛ لأنه يسهل عملية السيطرة على الطبيعة ويسهم في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تسارع وتيرة استنزاف الثروات الطبيعية واستنفاذ مخزونها الذي ينعكس سلبا على توازن الأنظمة البيئية.

-5 يدعو إمانويل مونييه إلى مراجعة نظرية القيم القانونية والأخلاقية وإدراج الطبيعة في خانة المواضيع التي يجب أن تكون محورا للمناقشة الأخلاقية، وهذا ما دعت إليه مختلف التيارات الايكولوجية، وبخاصة تياري الايكولوجية السياسية والإيكولوجية العميقة، ولهذا بالنظر إلى ما يمكن أن يلعبه رد الاعتبار للطبيعة بواسطة القانون في حمايته من سلطة الانسان وسيطرته عليها.

6- حضور التشاؤم والتفاؤل في فكر مونيه، فهو متشائم بالوضع الحالي لإنسانية، ولكنه متفائل بمستقبلها. وهذا ما ينطبق أيضا على الفكر الايكولوجي الذي يزدري الوضع البيئي للكوكب في المرحلة الراهنة، ولكنه يأمل في امكانية صناعة مستقبل أفضل لعلاقة الانسان مع الطبيعة بفضل الوعي والإرادة.

إن وجود نقاط التقاطع السالفة الذكر، هو ما يدفعنا إلى القول بأن التيارات الايكولوجية، على اختلاف توجهاتها، استفادت كثيرا من الفتوحات الفكرية للفلسفة الشخصانية، فهي تتقاطع معها في كثير من الأراء والمواقف النقدية والتأسيسية، وهذا الأمر هو ما يجعلنا نؤكد احتواء فلسفة إمانويل مونييه الشخصانية على بعد ايكولوجي لا يرقى إليه أي شك.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

ـالمصادر والمراجع

المصادر بالعربية

1. إمانويل. م.(1981). الشخصانية، تر: محمود جمول، ط2، بيروت: المنشورات العربية.

المصادر والمراجع بالأجنبية

1. Beauchamp, A. (1993). Introduction à l'éthique de l'environnement. Montréal: Editions Paulines.

2. Callicott, J. B. (2010). Ethique de la terre. Paris: Editions WildProject.

3. Grange, J. (2012). Pour une philosophie de l'écologie. Paris: Editions Pocket.

4. Jonas, H. (2008). Le principe responsabilité, une éthique pour la civilisation technologique. trad. Jean Greisch. Paris: Editions Flammarion.

5. Lovelock, J. (1993). L'hypothèse Gaia: La terre est un être vivant. Paris: Editions Flammarion.

6. Mounier, E. (1959). La petite peur du 20 siècle. Paris: Editions du seui.

7. Mounier, E. (1946). Qu'est ce que le personnalisme. Paris: Editions du seuil.

8. Naess, A. (2013). Ecologie, communauté et style de vie. France: Editions Dehors.

9. Serres, M. (1991). Le contrat naturel. Paris: François Bourin.

10. Tanuro, D. (2012). L'impossible capitalisme vert . Paris: Editions La Découverte.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

المؤلف مداح رزقي، (2021)، البعد الإيكولوجي لفلسفة امانويل مونيه الشخصانية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد13، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص.ص:282-291

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com